

برامج الأطفال في التلفزيون الجزائري نموذج الرسوم المتحركة من 1999 الى 2001

د. مهدي زعموم

نائب عميد مكلف بالبراغوجيا

كلية العلوم السياسية والإعلام

ما زالت برامج الأطفال في التلفزة تثير اهتمام الباحثين العرب، كما تثير جدلا ونقاشا واسعا على أكثر من صعيد تربوي، بل هناك من الباحثين من عبر عن قلق كبير تجاه هذه البرامج لا سيما في المرحلة المعاصرة، مرحلة الانفجار الإلكتروني والعولمة الثقافية. فالبرامج تندفق بشكل غير مسبوق وتحمل قيم واضعها في الغرب، مما أدى إلى اختراق هذه القيم ذهن الطفل العربي حتى أصبح من العسير أحيانا معرفة محتوى ونوعية الزاد الثقافي الذي يتأبطه أطفالنا بعد تضاعف الفضائيات وتدفق البث التلفزيوني وارتفاع ساعات الإرسال.

وقد أصبح من العسير التحكم في محتويات الرسائل التي يتفلقها الطفل عبر التلفزة والوافدة من الخارج، لأنها لم تصمم أصلا لأطفالنا بل جرى استيرادها، ولذلك فقد لا تتوافق محتويات هذه الرسائل بقيمها مع قيم مجتمعا، ولربما تتعارض معها لأن لها خلفيتها التاريخية والحضارية والثقافية، التي ليست هي خلفيات مجتمعا.

وأطفال الجزائر كما أطفال الوطن العربي يقلون على متابعة التلفزة الوطنية وكذلك الأجنبية لملا أوقات فراغهم من جهة ولاشباع فضولهم من جهة أخرى، أي أنهم يمتصون شيئا فشيئا ما تطرحه العولمة الثقافية عبر هذه البرامج، لنجدهم فجأة متأثرين مرة بأبطال هذه البرامج، ومرة أخرى بما ترسمه من سلوك موجه مقصود.

ومما يزيد الأمر صعوبة هو أن المسؤولين عن برمجة ما يقدم للأطفال يهتمون كثيرا مسألة خطيرة وهي أن مضمون هذه البرامج إنما يمثل جزءا لا يتجزأ من الثقافة، وليس مجرد مسألة عابرة من أجل التسلية أو إضاعة الوقت.

فثقافة الطفل هي جزء لا يتجزأ من ثقافة المجتمع ككل وهي أيضا جزء من الوعي الاجتماعي الذي ينمو بثقافة هذا الطفل وفهم قيم مجتمعه وثوابته. لذلك وجهت اهتمامي في هذه الدراسة لتناول برامج الأطفال التي جرى بثها في التلفزة الجزائرية خلال فترة 1999 إلى 2001 باعتبارها برامج تم اختيارها لتحقيق أهداف تربوية وترفيهية معينة على وجه الافتراض، بحيث تستجيب لتطلعات المجتمع وآماله في تنشئة الجيل الجديد.

وبدافع هذا الإنشغال قسمت الرسالة إلى ثلاثة أقسام:

1. هدف البحث:

يهدف البحث إلى الكشف عما يتعرض له الطفل الجزائري من بلبلية ثقافية تؤثر على شخصيته وذلك من خلال برامج الأطفال الغربية، لا سيما الرسوم المتحركة التي راحت تشغل كل أوقات فراغه. كما تهدف أيضا إلى التنبيه من خطر الاستمرار في هذه البرمجة التي تتصادم حضاريا مع واقعنا

المعاصر وما تعانيه شعوب الأمة العربية من هجمات ثقافية مضادة بلغت حد التعرض إلى المقدسات.

2. منهج الدراسة:

تعتمد الدراسة على المنهج المسحي الوصفي التحليلي. فالوصفي يصور ويوثق الظروف أو الاتجاهات الحالية. أما التحليلي فيشرح هذا الأمر، وهو لماذا توجد مواقف محددة؟

3. عينة الدراسة:

تناول الرسالة نوعين من العينات، عينة أولى: وتتمثل في المسلسلات من الرسوم المتحركة التي شغلت اهتمام الأطفال المبحوثين طوال سنوات 01/00/99.

أما العينة الثانية فتمثل الجزء الميداني من الدراسة، الذي يهتم باستبيان كيفية تعامل الأطفال مع هذه المسلسلات.

أما فيما يتعلق بالعينة الميدانية فاشتملت على ست مدارس مدرستان للمنطقة الحضرية، مدرستان للمنطقة الشبه حضرية، ومدرستان للمنطقة الريفية.

4. مفاهيم الدراسة:

تعرضت في هذه النقطة إلى المفاهيم المختلفة للدراسة وتعريفها الإجرائية كما يلي:

- مفهوم الثقافة: "الثقافة بناء فوقي يقدم للفرد والجماعات الرموز والقيم، ويحدد مضمون الأفكار، ويوجه السعي، كما يحدد الحاجات الأخرى

التي تظهر فيما بعد إرضاء الحاجات البيولوجية الأساسية، واكتساب الحد الأدنى من الحياة الاقتصادية".

وتحت هذا المفهوم يندرج :

- ما يخلقه الإنسان بنشاطه وعمله (المادي والروحي).
- أن يكون نتاج هذه الإنسان مقبولا من جماعات الآخرين.
- أن ينشأ بناء فوقي يقدم للإنسان من خلا نظام القيم الرموز، ونماذج السلوك الثابتة التي تحيط بالوعي وتصرفات الآخرين.

5. مفهوم القيم المعتمد في الدراسة:

هو مجموعة من المعايير الثابتة التي يضعها المجتمع الذي تنبثق عنه القيم، والذي يحدد المرغوب فيه والمرغوب عنه، بحيث تشكل هذه المعايير قانونا ينظم نسق الأفعال والسلوك وأهداف الأعمال عهلى مستوى المقبول وغير المقبول أو المستحسن والمستهجل.

الرسوم المتحركة:

تتجه كل التعاريف التي بين أيدينا حول الرسوم المتحركة إلى توصيفها توصيفا تقنيا، ولا يوجد تعريف واحد يوضح هذه الرسوم من حيث مضمونها ورسالتها والمقدمة في كل من موسوعة السينما وتعريف ميشال مارتان وتعريف المخرج الفرنسي Sergele tendre .

لذلك فإن هذه التعاريف تبقى ناقصة غدا أننا ننظر للرسوم المتحركة على أنها وعاء للفكر ونوع من أنواع التعبير المعرفي الذي ينقل فيما ثقافية واجتماعية وتربوية.

وقد أجمع كثير من المفكرين على أن الرسم أو الرسوم المتحركة هي لغة عالمية، تحمل في طياتها عناصر الاتصال عبر، رموز ولغة وحركة وصوت مفهومة من طرف الأطفال، أي يمكن للفرد أن يوصل رغباته وأفكاره وشعوره وأحاسيسه للآخرين.

فرسوم الأطفال تعد حوارا للطفل مع نفسه، وربما مع الآخرين من منطلق تأثير المناخ الاجتماعي الطبيعي والصناعي.

فالرسوم المتحركة هي وعاء فكري قوي يحمل في طياته قيم وثقافة وتقاليده المجتمع الصانعة لهذه الرسوم، باعتبارها وسيلة تأثير كبيرة على أطفالنا، الذين يمثلون أجيال المستقبل.

إذن فالرسوم المتحركة هي أداة تربوية وثقافية خطيرة في المنافسة الثقافية والصراع الحضاري بين الدول الكبرى والبلدان المتخلفة، وهو من أشهر الوسائل لنشر الأفكار التربوية والإيديولوجية عند الأطفال بشكل خاص وعند الكبار بشكل عام.

6. صعوبات البحث:

واجهتني صعوبات كثيرة أثناء إنجاز هذا العمل أذكر منها:

1. صعوبة متابعة البرامج التلفزيونية خاصة الفترة الصباحية، وتذبذب البرمجة في المناسبات المختلفة.
2. صعوبة الحصول من أرشيف التلفزة الجزائرية على تسجيلات خاصة بمسلسلات الرسوم المتحركة التي بثت في فترة الدراسة، والتي بناء على عقد البث المبرم لم تحتفظ المؤسسة بنسخة منها.
3. صعوبة التنقل بين المدارس ولقاء التلاميذ.

أوضحت لنا أجوبة تلاميذ المدارس الست ما يلي:

أولاً: قد تبين بالقراءة المتأنية أن أجهزة التلفزة منتشرة لدى كل العائلات في المنطقة الحضرية وشبه الحضرية والريفية، مع اختلاف تعداد هذه الأجهزة تبعاً للحالة الاقتصادية والاجتماعية لكل عائلة. وهذه المعطيات تؤكد هيمنة التلفزة كأقوى وسيلة إعلامية في الجزائر.

ثانياً: إن المستوى الثقافي المتباين للآباء بين المناطق الثلاث لم يكن له تأثيره الكبير على عملية التوجيه الثقافي داخل الأسرة الواحدة. ومع أن المنطقة الحضرية تتميز بارتفاع نسبة الآباء الجامعيين، إلا أنها في نفس الوقت تتميز بانخفاض مستوى الأمهات التعليمي الذي لا يتعدى المرحلة الابتدائية، وهو ما يدفعنا إلى التفكير كثيراً في الدور الثقافي الرائد لهذه الأسرة. هل الأب هو الموجه أم الأم؟ رغم أن الشروط الاجتماعية تؤكد الأفضلية للأب.

ومن الملاحظ أيضاً في المنطقة شبه الحضرية، أن هناك أمهات بدون مستوى تعليمي على عكس المنطقة الريفية التي يظهر فيها التوازن الثقافي بين الآباء والأمهات، وهو ما يكشف لنا مسألة تدخل الأولياء المتقارب في مشاهدة التلفزة.

ثالثاً: إن تدخل الأولياء على مستوى واحد في المناطق الثلاث، فهم جميعاً يتدخلون أحياناً في تحديد ما يريد أن يشاهد الطفل، في حين أن الكثير من هؤلاء الأولياء لا يتدخلون أو يتدخلون نادراً في تحديد أوقات المشاهدة سواء كان ذلك ليلاً أو نهاراً. وفي هذا شيء من التقصير إذ المفروض ألا يسهر الطفل لمشاهدة البرامج ليلاً، لأن ذلك يؤخره عن الاستيقاظ صباحاً للذهاب إلى المدرسة، وكذلك عن متابعة الدروس.

رابعاً: كل إجابات الأطفال حول أوقات مشاهدة برامج التلفزة انصبت على المساء والليل، ولكن على الفضائيات الأجنبية إذ أن برمجة ما يخص الأطفال في التلفزة الجزائرية لا تتناسب مع الأوقات التي يمكن للأطفال استغلالها في مشاهدة التلفزة، فالبرامج غالباً ما تكون في النهار، أي في الوقت الذي يكون فيه الطفل في المدرسة. وبوصف آخر فإن سوء البرمجة في التلفزة الجزائرية يدفع الأطفال إلى متابعة القنوات الأجنبية التي تسرب إلى أدمغتهم الصغيرة القيم غير المناسبة وهو موضوع عدم رضى الوالدين عن الأطفال في متابعة الأفلام والمسلسلات الأجنبية.

خامساً: أكد الأطفال جميعهم أنهم يفضلون متابعة القناة الجزائرية والقنوات العربية، إلا أنه قليلاً ما تستجيب هذه القنوات لأوقات فراغهم كما أشرنا، وكذلك قليلاً ما تستجيب إلى طموحات عالم الصغار، وكذلك يجدون أنفسهم بعيداً عنها مع أنهم يعربون دائماً عن حاجتهم إليها لأنهم يفهمون اللغة التي تبث بها، أي يتفاعلون عبرها مع لغتهم الوطنية.

سادساً: يمضي الأطفال وقتاً ليس بالقليل في مشاهدة برامج التلفزة إذ تتراوح المدة بين ساعتين إلى أكثر من ثلاث ساعات في اليوم الواحد، لكن هذا الزمن ليس كله لمشاهدة القناة الجزائرية، وإنما لغيرها، وهو ما يعد خطأ كبيراً يحمل في طياته شيئاً من الخطورة على مستقبل الأطفال.

سابعاً: تستجيب الرسوم المتحركة وحدها إلى مشاعر الأطفال الجزائريين، وهو ما أوضحناه في الجدول رقم (1) وكذلك في شرح المسلسلات (أنظر ص132) فيما تأتي برامج الإنتاج الوطني والعربي بالدرجة الأدنى، وكذلك فإن التأثير الأكبر على سلوك الأطفال ينعكس من هذه الرسوم التي تحمل الكثير من القيم غير الملائمة، وقد أوضحنا ما سببه مسلسل بوكيمون من ضحيج في

الوطن العربي وكذلك مسلسل "عودة المتحولون"، الذي يحمل كل ما ينفي قيم مجتمعاتنا الإسلامية والعربية، ثم بقية المسلسلات التي حازت إعجاب الأطفال.

ثامنا: تغمر الأطفال فرحة كبيرة عندما يشاهدون الرسوم المتحركة معنى ذلك أنهم يتأثرون بها بوعي وبغير وعي عبر الزمن الطويل الذي يقضونه أمامها، يملأون أدمغتهم بأسماء أبطالها الأجنبية، يحفظون هذه الأسماء على حساب ما يجب أن يحفظوه من أسماء ومعالم تخص ثقافتهم وثقافة مجتمعاتهم، وقد يتقمص بعضهم شخصيات أبطال هذه المسلسلات، وهو ما نلاحظه فعلا لدى الأطفال اللاهين في ساحة المدرسة أو حتى أوقات خروجهم من المدرسة.

هناك شكاوى من العديد من الأولياء الذين أصيبوا بصدمات من هذا الواقع سواء فيما يتعلق بالإصابات العضوية لدى هؤلاء الأطفال أو بالفوضى التي يحدثونها عند تقمص حدث من أحداث المسلسلات.

تاسعا: أعرب الأطفال جميعهم ذكورا وإناثا أن ما يدفعهم إلى مشاهدة الرسوم المتحركة إنما هو حاجتهم للترفيه والتسلية والتنفيس عن نفوسهم أمام سوء التفاهم أحيانا داخل الأسرة أو في المدرسة أو في مجرى العلاقات مع الزملاء. فهم يتخيلون واقعا معينا لطموحاتهم لا يجدون لهم من يسايرهم في العائلة، ومن يشكون إليه ما يعانون فيه، لذلك تكون هذه الرسوم متنفسا لهم أي بمعنى آخر تفتح لهم بابا للهروب مما هم فيه، وتشخيص الأوهام كحقائق واقعية قد تسبب لهم فيما بعد عزلة عن العالم المعاش أو التمرد عليه.

عاشرا وأخيرا: لا يطمح الأطفال تبعا للأجوبة التي بين أيدينا إلى استغلال برامج بعض الأشرطة العلمية والثقافية، إذ يجدون صعوبة في تقبلها، ويولونها الدرجة الثالثة أو الرابعة من الاهتمام. وقد لا يجدون في هذه الأشرطة نفسها ما هم بحاجة إليه في دراستهم، وقد يكون البرنامج أيضا فوق المستوى

الذي يفهمون، ويكون أسبق من المعلومات التي اكتسبوها، لذلك سرعان ما ينفضون عن هذه الأشرطة إلى الأسهل والمتع.

خاتمة

عرضنا في الفصل التمهيدي وكذلك في الفصل الأول الواقع الإعلامي المعاصر ومحاولة إعلام العولمة الهيمنة على برامج الأطفال نفسها، ثم تناولنا في الفصل الثاني واقع برامج الأطفال في التلفزة الجزائرية وهيمنة الرسوم المتحركة عليها، كما يؤكد أن التلفزة الجزائرية فتحت أبوابها على مصاريعها لهذه الرسوم دون إعادة النظر فيها، أو العمل على تقويم ما جاء في مضامينها من قيم تؤذي مستقبل أطفال الجزائر، أي أنها لم تسع أبدا إلى الوقوف في وجه ثقافة العولمة المهددة للأطفال، ولم تراقب الإنتاج المستورد وهو ما يؤكد الفرضية الأولى للرسالة. ذلك أن الرسوم المتحركة بدت في أعين المبرمجين مجرد تسلية بريئة بينما هي في الحقيقة غير ذلك، إذ تشبه بأشد الأعداء ضرا، وهو العدو الذي يظهر وكأنه حبيب لنا فلا ننتبه إليه حتى يبلغ ذروته من التأثير. فالأطفال أثناء عرض مسلسل الرسوم المتحركة يمتنعون عن الأكل والشرب وعن الإجابة عن أي سؤال، وإذا ما انتهى المسلسل بدأ الشجار الذي يقلد فيه الأطفال أبطال المسلسل.

وعندما ندرك بوعي الحقيقة التي قدمناها وهي، أن نسبة الرسوم المتحركة، من برمج الأطفال قد بلغت 78.22%، وهي من إنتاج أمريكي وياباني عرفنا مدى خطورتها في نقل سمات المجتمعات الغربية وعريها وسقوطها الأخلاقي والديني إلى أذهان أطفالنا. أضف إلى ذلك ما تحمله هذه الرسوم من تمجيد لقيم الحضارة الأمريكية وتقديس لسيطرة وسيادة الرجل الأبيض.

إن البعد الإيديولوجي في أفلام الرسوم المتحركة لا يختلف عن البعد الإيديولوجي الذي أثبتته البحوث والدراسات الإعلامية عن أفلام هوليوود، أو ما يعرف بعقيدة أفلام هوليوود. ففي غالبية الأفلام الكارتونية يظهر الرجل أو المرأة من البيض بشكل معين. فالبيض هم أهل الخير في الكارتون وهم المنتصرون حيث تظهر الرسالة المكررة عن انتصار الخير وانهمزام الشر بصيغة موحدة. والرجل الأبيض الطيب لا يقتل المحرم مثلا ولكن المحرم أو الشرير هو الذي يموت بخطأه أو بعقاب ما أو بحادث مفاجئ آخر. وهكذا يزرع الأمريكيون في ذهن الطفل شكلا محددًا لصورة الخير والشر، ويقربون إلى قلبه الرجل الأبيض. وأخطر ما في الأمر أن النظرة العامة تعتبر الشخصيات الكارتونية فاقدة للهوية، وهذا ما يسهل انتشارها ونشرها لإيديولوجية راسميتها. ومن الملاحظ أيضا أن كل الإنتاج المدبلج الذي قدمته التلفزة الجزائرية يؤثر أيضا على مستقبل الطفل تأثيرا سلبيا، إذ أن أول ما يتبادر إلى الذهن هو أن ما يقدمه هذا الإنتاج من رؤية مستقبلية وانبهار بنموذج المجتمع الغربي، إنما يجعل الطفل العربي يتخيل أن هذا المستقبل ليس مستقبله ولكنه مستقبل أطفال ينتمون إلى هذا النموذج من المجتمعات التي تتوفر فيها مرافق وأدوات وعوائد لا تتوفر لديه، وتلك إحدى تداعيات العولمة.

وفيما يتعلق بالإنتاج الوطني فإن ما شرحناه في الفصل الثاني يؤكد أن التلفزة الجزائرية لم تقدم ذلك الإنتاج الوطني الذي يعزز منظومة قيم الطفل الجزائري بثواب المجتمع الجزائري، بل كان إنتاجا شكليا مجرد تغطية الوقت، ذلك أن ما يفتقر إليه هذا الإنتاج هو غياب مرجعية تشد الطفل إلى هويته وتعمق جذور انتمائه إلى تراثه وواقعه مما يؤدي إلى الانفصام عن الهوية فيما بعد. فالطفل الجزائري والعربي يحتاج إلى إنتاج يرشده إلى جذوره ويعمق لديه

الإحساس بالانتماء إلى أمة عظيمة وحضارة أصيلة، يحتاج إلى إنتاج عربي يبيع من تراثه ويعالج واقعه، ويفتح أمامه أبواب المستقبل، واكتساب شخصية متوازنة، شخصية تكون قد تغذت منذ نعومة أظافرها بقيم أصيلة سمحة قوامها الإيمان والتفائل والطموح والاعتماد على الذات وتقديس العمل.

إن اعتماد التلفزة الجزائرية على هذه الكثافة من الرسوم المتحركة يدفعنا إلى هذا التساؤل: هل نحن بصدد دعم هيمنة العولمة عبر عقلانية الغرب وماديتها مما يهدد أصالتنا؟ أم المفروض أن نكون إزاء فرصة للدخول في التاريخ الحي المتحرك بدءا بالتنوير ووصولاً إلى ما بعد الحداثة في مختلف تجلياتها.

لقد علمنا التاريخ أن الفكر العربي استطاع دوماً أن يجد له موقعا وسطا بين أعنى تيارات التنميط الثقافية المتصارعة. فمفهوم الوسطية متجذر في حضارتنا وثقافتنا، واستنادا إلى هذا المفهوم استطاع العقل العربي أن يتفادى الانزلاق في زعزعة منظومة قيمه، وأن يستفيد من إيجابيات ما يدعم هذه المنظومة بفضل الوعي والتوفيق وتنقية الشوائب. لذلك فإن السماح لهذه الشوائب بالتسلل إلى منظومة قيمنا سواء عبر الإعلام ككل أو عبر برامج الأطفال، إنما يهدد واقعنا الحضاري ويسيء إلينا. ولهذا نأمل أن تسعى التلفزة الجزائرية إلى الاهتمام الحقيقي ببرامج الأطفال وفق منظومتنا الحضارية وواقعها المرن والله ولي التوفيق.